ودِّع همومك

ينبغي على من أراد السعادة في حياته أن يتخذ ثلاث قرارات مصيرية ويعمل بها لكن بحزم وإصرار.

القرار الأول: نسيان الماضي بأن يغلق على ملفات الماضي في زنزانة الإهمال والإغفال فلا يفتحها أبداً ولا يقرؤها مطلقاً ولا يتذكر أي مصيبة أو مأساة أو كارثة مرّت به وكأنه وُلد اليوم فليس له علاقة بأمس الذاهب الذي مات وكُفِّن رحمه الله؛ لأنَّ تذكر الماضي حُمق وجُنون ولا يمكن أن يصلحه دمع أو عويل أو تحسر وأسف فلماذا إعادة عقارب ساعات الزمن وإخراج الأموات من قبورهم ونشر النشارة وطحن الطحين، وهذا ما يفعله من يستجرُّ ويتذكر أحداث الماضي.

القرار الثاني: ترك المستقبل حتى يأتي، بحيث لا تشغل ذهنك بالأيام القادمة فقد لا تصل إليها أصلاً، فأنت حينما تعيش في المستقبل معناه أنك تصارع الظل وتقاتل الأشباح، وفي المثل الياباني (لا تعبر جسراً حتى تأتيه) وهذا صحيح فقد لا تصل إلى الجسر أصلاً وقد ينهار قبل أن تصل إليه وقد تعبره سالماً، والاشتغال بالمستقبل وترك الحاضر معناه ضياع الفرصة الوقتية الحاضرة في العمل والإنتاج وليس معنى هذا الكلام عدم الاستعداد للمستقبل؛ لأن الناجح في يومه هو المستعد حقيقة لمستقبله.

القرار الثالث: (عش في حدود يومك) فتعتقد اعتقاداً جازماً أنك لن تعيش إلا هذا اليوم، وأن حياتك يوم واحد فقط فتخطط لهذا اليوم وتعمل له وتملؤه نجاحاً وفلاحاً وصلاحًا وتجتث من نفسك شجرة الشَّر وتستلَّ من قلبك عقارب السموم والهموم والأحزان وتحرص على الاستفادة من كل دقيقة في هذا اليوم الذي هو ملكك فقط؛ لأن الماضي ذهب إلى غير رجعة، والمستقبل في عالم الغيب وهو غير مضمون، كما قال الشاعر:

مــا مـضــى فـــات والمــؤمــل غـيــبٌ
ولــك الـســاعـة الــتــي أنـــت فـيـهـا

إذاً، فاكتب على جدار قلبك عبارة (يومَك يومَك) وإن كتبتها في مكتبك فحسن جميل؛ حتى تعلم أنك لن تعيش إلا يوماً واحداً، وفي الحديث: «**إذا أصبحت فلا تنتظر المساء**»، يقول زميلي وصديقي أبو الطيب المتنبي:

لا تَـلْـقَ دَهـــرَكَ إلا غَــيرَ مُـكْـتَرِث
مــادامَ يَـصـحَـبُ فـيـهِ روحَــكَ الـبَـدَنُ

فَـمـا يـــدِيمُ سُــــروراً مــا سُـــرِرتَ بِـهِ
وَلا يَــرُدُّ عَـلَـيـكَ الـفـائِـتَ الحَـــزَنُ

وسلامتكم.

اللغة العربية في خطر

اللغة العربية أكثر لغات الأرض مفردات وتراكيب وهي لغة العلم والفن والعقل والروح والصوت والصورة ولكنها اليوم في خطر أمام مد التغريب الزاحف والعاميّة الجارفة فكثير من العرب يفخر بغير لغته حتى صار من الموضة عند كثير منهم الرطانة بالإنجليزية والتباهي بترداد مفرداتها، ومن سافر من العرب إلى الغرب عاد يرطن بكلمات عدة؛ ليوهم الناس أنه قد عاد بثقافة الغرب وحضارتهم وكأنه الدكتور أحمد زويل أو البروفسور زغلول النجار، بينما تجده كان ماسحاً للسيارات في شوارع لندن أو نادل مطعم في تكساس، والعربية مهدّدة بلغات العمالة الوافدة إلى بلاد العرب وبالخصوص الخليج العربي؛ فالأرض تتكلم أوردو أو بشتو ولغة التاميل، حتى صارت المربيات يلقنّ أطفالنا لغاتهم على حساب لغتنا فضعفت لغتنا، أمام هذا السيل الطاغي من اللغة الوافدة، وتهدد العربية أيضاً باللهجة العامية فأكثر الأشعار الآن باللغة المحلية وهي لغة بلدية محليّة دارجة سوقية ويعقد لشعرائها مسابقات وجوائز ثمينة بينما شعراء العربية أكلتهم الوحدة والإهمال والتجاهل، وزاد الطين بلّة قيام وزارات التربية والتعليم في الدول العربية بتدريس العلوم والرياضيات باللغة الإنجليزية أو الفرنسية وأصل هذه العلوم كان بالعربية في عهد الفارابي وابن سينا وابن النفيس وجابر بن حيان فضعف، فهم الطالب هذه العلوم ونسي لغته العربية الأم.

واليوم أصبح من الواجب على كل عربي غيور أن يهب؛ لحماية لغته من الفناء وينقذها من الموت، كلٌّ في حقله وتخصصه فأهل التربية والتعليم والمفكرون والمثقفون والأدباء ورجال الإعلام هم المسؤولون عن العربية أمام الله ثم الأمة والتاريخ وكما قال أبو منصور الثعالبي: من أحب الله أحب رسوله ﷺ ومن أحب رسوله أحب القرآن ومن أحب القرآن أحب العربية؛ لأن القرآن نزل بها ومن الشرف العظيم والمجد المنيف لهذه الأمة أن كتابها عربي ونبيّها عربي، ولكن المتسوّلين على

أبواب الأجنبي والمتطفلين على موائد الغير يرفضون هذا الشرف ويفرّون من هذا المجد، والحل أن تتبنى الحكومات العربية ميثاق شرف حماية العربية وأن تلتزم بالعربية لغة رسمية في كل شؤونها كما فعلت كل أمم الأرض، ويُعلَّم الجيل لغته الأم، ويُوقف في وجه كل دعوة للتغريب والتشويه والعامية؛ لنحافظ على هويتنا كعرب اختارنا الله للرسالة الخاتمة والدين العظيم والملة السمحاء.

بشّروا ولا تنفّروا

بشّروا ولا تنفّروا ويسّروا ولا تعسّروا، هذا كلام الرسول المعصوم ﷺ وإعلان صريح وخطاب واضح موجّه لحملة الإسلام، معناه التبشير بالدّين الجديد والتّيسير على الناس وعدم تنفيرهم بالغلظة والفظاظة بل دعوتهم بالحكمة والموعظة الحسنة وتذكيرهم برحمة أرحم الراحمين، إن العلماء والدعاة وحملة الهم الإسلامي هم رسل سلام ورحمة في الحقيقة، فإذا خالف أحدهم هذا المنهج وأصبح ينفّر الناس بشدّته وقسوته ويقنّطهم من رحمة الله فإنما لخلل في نفسه هو، وإلا فإن رسالة الإسلام رسالة حب وسلام ورحمة وهداية، يقول الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾، ولهذا أنهى إخواني من الدعاة الذين يهدّدون الناس بخطبهم ويتوعّدونهم وكأن الرحمة والعذاب بأيديهم، والبعض يتكلم للناس بمثالية وتعال، وكأنه في برج عال أو من فصيلة أخرى لا يذنب ولا يخطئ، والله يقول: ﴿ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا ﴾.

لماذا لا نعترف بإنسانيتنا وقصورنا وعجزنا؟ ولماذا لا نخاطب الناس على أننا مثلهم وهم مثلنا كلّنا بشرٌ نصيب ونخطئ، نذنب ونستغفر، ننجح ونخفق، لا أحد منّا يملك الوصاية المطلقة على الإسلام، ولا أحد منّا هو الناطق الرسمي الوحيد باسم الدّين، فليس عندنا في الإسلام (بابا) ولا (ماما) كلّنا أهل رسالة ربّانيّة عالمية هي رسالة سلام وإخاء وبشرى وهداية ورحمة، لا أحد أذكى ولا أطهر ولا أنبل ولا أكرم من محمد ﷺ، ولهذا ذكّره ربه بالأسلوب الجميل في الدعوة، فقال: ﴿ فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ ﴾.

إن كلمات الوعيد والتهديد في الموعظة والتّنفير والحِدّة المتناهية معناها أن المتكلم لم يفهم إلى الآن مقاصد هذه الشريعة المحمدية، فهو يتكلم على حسب طبيعته هو المركّبة من الفظاظة والغلظة والقسوة، فأخذ يعبّر عن الإسلام لكن بفكرته التشاؤمية السوداوية وكيف يصغي لخطابنا من نخبره أنه شرّير وأن الله

لا يغفر له وأن النار تنتظره ونمطره صباح مساء بالويل والثبور وعظائم الأمور، مع العلم أن الكتاب والسنة بشّرا بالتوبة واللطف من الله والرحمة الواسعة والمستقبل الجميل والمنقلب الحسن: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾. إن مفاتيح الجنّة بيد الله وحده جل في علاه، وهو الذي خلقنا من تراب وعلم ضعفنا، وهو غني عنّا ومع ذلك دعانا بالرفق واللين ووعدنا رحمته وهو أرحم الراحمين، فكيف يأتي بعضنا يستعرض علينا قدراته البيانية وملكاته الخطابية ويحاصرنا بالتّبكيت والتأنيب والتّسفيه والتّجهيل؟ وفي الحديث الصحيح أن رجلاً عابداً نصح أحد العصاة، فلم يستجب له العاصي، فقال العابد للعاصي: والله لا يغفر الله لك، فقال الله تعالى: من الذي يتألّى عليَّ؟ أشهدكم أني غفرت لهذا العاصي، وأحبطتُ عمل هذا العابد.

إذاً، أيها الإخوة الفضلاء دعونا نقدِّم بشرى للناس لهذا الدِّين الخاتم ونجعله حلاً لمآسيهم ومشكلاتهم؛ لأن رسوله الكريم ﷺ جاء كما وصفه ربُّه: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ فمهمَّته إزالة العُسر والمشقة والعنت وإدخال السرور والأمن والرضا والسكينة، إن ديننا العظيم بريء من كهنوت الكنيسة التي تدعو إلى قتل الإنسانية في الإنسان وتحريم ما أحلَّه الله ونسف مباهج الحياة وإلغاء إشراق الروح، ولهذا قال الله عنهم: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾. فديننا غذاء للعقل وزاد للروح ومتعة للعاطفة، ورسالتنا حياة للجسم ونور للقلب وسعادة للدنيا وفوز في الآخرة وإصلاح للفرد واستقامة للأمة، فهو توازنٌ بين الحقوق والواجبات، والفرائض والنوافل، والمكاسب والمواهب، والأخذ والعطاء؛ لأنه نزل بميزان العدل: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ﴾، فلا بد لمن يدعو للهداية أن يفهم دين الله وأن يتفقَّه في شريعته سبحانه ليدعو إلى الله على فهم عميق، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

أوقد شمعة ولا تلعن الظلام

الذكي الموفَّق يحوّل خسائره إلى مكاسب، طُرد الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة فأنشأ دولة عادلة ملأت سمع الزمان وبصره، سُجن ابن تيمية فكتب في السجن ثلاثين مجلداً من العلم النافع، وُضع السرخسي في بئر معطّلة تحت الأرض فألَّف كتاب «**المبسوط**» عشرين مجلداً، أُقعد ابن الأثير فصنَّف «**جامع الأصول**» أنفع كتاب وأفيده في الحديث، تعطَّل عطاء بن أبي رباح عن المكاسب الدنيوية لأمراضه وضعفه فجلس في الحرم ثلاثين سنة يتعلم العلم فصار عالم الدنيا، أصابت الحمى أبا الطيب المتنبي فأرسل للعالمين قصيدته الرائعة الذائعة:

وَزائِرَتي كَأَنَّ بِها حَياءً
فَلَيسَ تَزورُ إِلا في الظَّلامِ

وعمي طه حسين فواصل دراسته حتى نال العالمية، وبُتِرت رجل الزمخشري فلزم بيته يقرأ ويصنِّف فصار أعجوبة الدهر، إذاً استثمر الوجه الآخر للمأساة وانظر إلى الجانب المشرق للمصيبة وحاول أن تصنع من الليمون شراباً حلواً، وتكيّف مع ظرفك القاسي واعلم أن العظماء إنما شقّوا طريقهم إلى المجد على الجمر وعلى الشوك والتعب والمشقة؛ لأن طريق الراحة التعب، والتفوق والانتصار قطرات من الدموع والآهات والدماء والعرق، أما الإخفاق والهزيمة فإنها كبسولات مسكِّنة من الفشل والكسل والتّسويف والإحباط والراحة، فإذا واجهتك أزمةٌ وصدمتك مأساة فلا تقابلها بالعويل والثبور والبكاء والتّحسر، بل واجهها بالاحتساب والصبر والإصرار على الانتصار والثبات والاستمرار.

إن العباقرة في الغالب لم تكن ظروفهم مهيأة ولا النعم لديهم مكتملة ولا الوسائل متاحة، فمن عنده مالٌ ليس لديه صحة، ومن رُزق ذكاءً خسر الثروة، ومن مُتِّع بسمعه قد يفقد بصره، فحال الدنيا عدم الاكتمال، فلو أن الدنيا تمّت لأحد من العز والمال

والصحة والجاه والسرور والأمن لصارت جنّة، ولما كان في الآخرة جنّة ثانية، لكن هذه الدنيا (**من سرَّه زمنٌ ساءته أزمان**) فلا تنتظر أن يصفو لك العيش وتسالمك الأيام وتُتاح لك الفرص وتُفرش لك طريق المجد بالورود، ولكن انطلق بما أعطاك الله من موهبة ونعمة ووظِّفها أحسن توظيف واجتهد غاية الاجتهاد، وإذا ضمك الليل فلا تلعن الظلام ولكن أوقد شمعة، وإذا تعطَّلت بك سيارتك فلا تُلقِ خطبة رنّانة في سبّ من صنعها أو الطريق الذي مشت عليه، ولكن أصلحها وواصل السير، وإذا تنكَّر لك صديق فلا تنظم فيه قصائد الهجاء وتضيّع وقتك ولكن ابحث عن صديق آخر أو عش وحيداً، وكن كالنملة تحاول الصعود ألف مرَّة ولا تؤمن بالإحباط أبداً، وكن كالسيل إذا وُضعت في طريقه صخرة انحرف ذات اليمين وذات الشمال.

الفرص أمامك كثيرة والأيام المشرقة تنتظرك، والانتصار حليفك إذا بذلت واجتهدت وتوكّلت على الله، لا تعترف في الحياة بالهزيمة أبداً وقاوم إلى آخر نَفَس من حياتك فإن أبا الريحان البيروني بقي يدرّس حتى في يوم وفاته، وأبو يوسف القاضي يناقش طلابه وهو في سكرات الموت، وابن سينا يكمل مصنَّفه والموت يدبُّ في أطرافه؛ لأن الحياة لا تعترف بالخاملين الكسالى، والدهر لا يصفق للفاشلين، والمؤمن القوي خير وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف، قال شوقي:

وَمـا نَيلُ المَطالِبِ بِالتَمَنّي
وَلَكِن تُؤخَذُ الدُنيا غِلابا

وقلت أنا (وأعوذ بالله من كلمة أنا):

كنْ أحمرَ العينِ إن المجدَ منتهبٌ
وكن فديتُكَ مرجوّاً ومرهوبا

لم ينفعِ الشّاةَ في الدنيا سكينتُها
والليثُ ما ضرّهُ أن ليس محبوبا

اخلع النظارات السوداء

التشاؤم هو مادة من مقررات مدرسة الشيطان، وقد حذَّرنا الله تعالى من ذلك فقال: ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾. فإذا أوحت لك نفسك الأمَّارة بالسوء بأنك سوف تفشل وتخفق وتفتقر غداً وبأنك في المستقبل سوف تُصاب بمصيبة وتقع في كارثة فهذا كلّه كذب وأراجيف، ومشكلتنا أننا إذا خلونا بأنفسنا انتقلت بنا النفس إلى الخانة السوداوية فحدَّثتنا عن الآلام والمصائب، والأوجاع والنّكبات، ولكن مع الأسف لا تنقلنا إلى خانة التفاؤل ولا تخبرنا بما عندنا من النِّعم وما حققناه من النجاح وما أحرزناه من التّفوق والانتصار، فتجد الكثير منّا يفكر في المفقود ولا يشكر الله على الموجود ويبقى عمره ينتحب على فقد ولد أو ولدين ولكنه لا يفرح ببقاء العشرة من أبنائه، وتجد البعض يتحسَّر لأنه سوف يمرض غداً، ويتأسَّف لأنه سوف يفتقر بعد سنة، ويتحسَّر لأنه سوف يموت بعد ستين عاماً، وأنت إذا أنصفت من نفسك وجدت أن الحياة أجمل مما تتصور وأنها أروع مما تتخيّل، فمكاسبك فيها أكبر من خسائرك، ونِعَمَ الله عليك أعظم من المصائب التي حلَّت بك.

الحياة جميلة متى ما نظرت إليها بتفاؤل ومتى ما أحسنت توظيف نِعَمَ الله عليك ومتى ما استقبلت المواهب الرّبانية بقبول حسن، لكنَّك لن تجد للحياة طعماً لذيذاً ولن ترى لها صورة حسنة ما دمت تحمل بين جنبيك نفساً متشائمة ونظرة سوداوية، فلو سكنت قصراً مشيداً وحللت حديقة غنّاء وأشرفت على نهر مطّرد وملكت كنوز الدنيا فسوف تبقى كئيباً تعيساً منغَّصاً؛ لأنك صدّقت الشيطان في أخباره السيئة ووعوده الكاذبة، ولو صدَّقت الرحمن وآمنت به لرضيت بقضائه وقدره ولقنعت برزقه، فتجدك متبسِّماً سعيداً وأنت تسكن كوخاً وتأكل خبزاً جافًّا وتنام على الرمل، إن أكثر الشقاء الذي يعيشه كثير من الناس أوهام مزيّفة وأخبار مغلّفة بالكذب؛ لأنهم وضعوا على عيونهم نظارات سوداء من التشاؤم والنظر إلى

الجانب السلبي المظلم من الحياة، فأصبحوا لا يرون إلا سواداً في سواد، فهم لا يتمتَّعون ببهاء الشمس الساطعة وإنما يشكون حرارتها، ولا يتلذّذون بشرب الماء الزلال ولكنهم ينزعجون من برودته، وإذا ناولت أحدهم وردة جميلة نظر إلى شوكها، ولهذا يقول إيليا أبو ماضي:

أيُّها المشتكي وما بك داءٌ
كيفَ تغدو إذا غدوتَ عليلا؟

وترى الشوكَ في الورودِ وتعمى
أن ترى فوقَها النَّدى إكليلا

والذي نفسُه بغيرِ جمالٍ
لا يرى في الوجودِ شيئاً جميلا

فاخلع نظاراتك السوداء التشاؤمية ونظِّف ذاكرتك السوداوية من الأوهام والإحباط والخرافة واقبل على الحياة بإيمان ورضا وعزيمة وسوف تجد الحياة تعطيك أكثر مما تطلب، وسوف تراها أبهى وأبهج مما تتوقع، وقد ذكروا في التاريخ المعاصر أن فرنسا في ثورتها العارمة سجنت شاعرين من شعرائها متفائلاً ومتشائمًا، فأما المتفائل فأخرج رأسه من النافذة ونظر نظرة في النجوم وضحك، وأما المتشائم فنظر إلى البائسين في الشارع المجاور فبكى، وقد قسَّم الوحي الناس في استقبالهم للقرآن العظيم إلى قسمين حسب نظراتهم في الحب والتفاؤل والكره والتشاؤم: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾.

كم مرّة ظننا أنها النهاية فإذا هي البداية، كم من يوم اعتقدنا أنه الإخفاق والإحباط فإذا هو الانتصار والنّجاح، كم من مصيبة حسبنا أنها ساحقة ماحقة

فإذا هي نعمة وهبة ربّانيّة قوَّتنا وأيقظتنا، كم مرّة خِفنا ولكن لم يحدث ما نخاف، وكم مرّة تشاءمنا ولكن لم يحصل مكروه، فعلينا جميعاً أن نستقبل أيامنا بالتفاؤل والنفس الراضية والهمة العالية: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

نقد التعليم الديني

لا يـزال التعليم الديني في الجانب الفقهي علـى حالة واحدة عندنا منذ ألف سنـة، فهـو متون فقهيـة مذهبية مجردة من الدليـل كُتبت قبل قـرون من الزمن يحفظها الطلاب عن ظهر قلب كزاد المستقنع في الفقه الحنبلي ومختصر خليل في الفقه المالكي والتقريب لأبي شجاع في الفقه الشافعي والقدوري في الفقه الحنفي، وهـذه المتون كُتِبـت باختصار شديد العبـارة وإلغاز في الجمـل واختزال للمعاني، والخطأ فيها من وجهين:

الأول: تجريدها من النصوص كتاباً وسنة؛ لأن المقصود الاستدلال لها بدليل شرعي لا الاستدلال بها هي مجردةً من الدليل.

الثـاني: فَهِـم الكثير أن هـذه الآراء الفقهية قاطعة راجحـة وما سواها باطل فحصـل التعصب للمذهب والبعـد عن الدليل فحينما تطالع مثلاً أول زاد المستقنع تجد عبارة (وأقسام المياه ثلاثة) وهذا خطأ، بل هما قسمان فقط، ثم يقول: (وإذا اشتبهت ثياب طاهرة بنجسة صلى بعددها وزاد صلاة) يعني أن من عنده عشرين ثوبـاً فعنـد الاشتباه يصلي إحـدى وعشرين صلاة وهذا خطأ بـل عليه أن يتحرى، والمشكلـة أن هـذه المتون تذهب بالطالـب بعيداً عن الآية والحديـث ويكدُّ ذهنه في عبـارات مغلقة مقفلة دون طائـل، ولماذا نشتغل بعبارات الفقهـاء الملغزة الغامضة ونشرحهـا ونعصر الذهن في فهمها ومعنا كتاب عظيم فيه الهدى والنور مع البيان الشافي والجواب الكافي ومعنا سنة مطهرة سهلة ميسَّرة، حتى إننا نعرف من الفقهاء مـن تصـدَّر للإفتاء وهـو لا يميز بين الحديـث الصحيح والضعيـف ولا يستحضر الدليل، وإنما يحفظ هذه المتون الفقهية المذهبية، فهل فينا رجل رشيد يُصلح هذا التعليـم الفقهـي؛ ليدرس الطلاب فقه الكتاب والسنة كمـا فعل أئمة الحديث وابن تيمية وابن عبدالبر وابن عبدالوهاب والصنعاني والشوكاني وغيرهم.

وقد درسنا في المتوسطة والثانوية سبع عشرة مادة في الدِّين والرياضيات والجبر والهندسة والفيزياء والكيمياء والأحياء والإنجليزي مع الأدب والنحو والثقافة والتاريخ والجغرافيا وغيرها وكان معنا في تلك المراحل د. سلمان العودة ود. عبدالرحمن السديس ود. عبدالوهاب الطريري ود. محمد التركي وغيرهم من تلك الفرقة الناجية والطائفة المنصورة فتخرَّجنا لا نعرف الإنجليزي ولا نجيد الفيزياء ولا نفهم الكيمياء ولا نحسن الأحياء ولم يُفتح علينا في الجبر ولم نوفَّق في الهندسة ولم نبرع في الحساب وغرقنا في الجغرافيا بين صادرات ساحل العاج ومستوردات بركونافاسو، ومنتجات الكامرون وأخشاب زائير والكاكاو في غينيا بيساو، فصار المنهج (خويضة) وصارت دراسة هذه المواد على حساب المواد الشرعية واللغة العربية، وبالله عليكم هل هذه طريقة في تعلم العلم؟ ويحق للطلاب في العالم العربي ألا يخرج منهم فقيهٌ بارعٌ ولا مفسِّرٌ حاذقٌ ولا أديبٌ لا معٌ ولا نحويٌّ ساطعٌ؛ لأن التعليم في المتوسطة والثانوية (كوكتيل) قل يعني على طريقة: (صِبحتّ بالخير).

أغلقوا محاكم التفتيش

لن تسلموا من تصنيف الناس ولو كنتم في بروج مشيّدة، فإذا تكلّمت أو حاضرت أو كتبت أو ألّفت فسوف يقوم أناس موكّلون بك ويصنّفونك تماماً فإن كنت طالب علم ومدحت آراء الفقهاء ونقلت عن أهل المذاهب فأنت عندهم مقلّد متعصّب جامد، وإن أخذت بالدليل واعتمدت على النص فأنت ظاهري جلف، وإن رفعت صوتك وأغلظت في العبارة وأنكرت على بعض المخالفات فأنت (خارجي)، وإن أكثرت من البشارة وذكّرت الناس بعفو الله وفتحت باب الأمل لهم في التوبة فأنت (مرجئ)، وإن رفقت بأهل الشأن وألنت لهم الحديث فأنت عالم سلطان مداهن، وإن كتبت عن الآخر ونقلت عن الغرب فأنت (ليبرالي)، وإن تحدّثت عن التمدن وخبرات الغير فأنت (علماني)، وإن حاضرت عن الحكم وما والاه فأنت (إخواني)، وإن ذكرت الولاء والبراء فأنت (سروري)، وإن أكثرت من المبشرات وأعرضت عن المنكرات فأنت (تبليغي)، وإن حاضرت عن الخلافة فأنت (تحريري).

وإن دعوت إلى منهج السلف ونبذ الشركيّات والبدع فأنت (وهّابي)، وإن أكثرت من الشمائل والمدائح النبوية فأنت (صوفي)، وعندي كتابات ورسائل تحدثت عني من البعض فذكرت عني وأنا العبد الفقير أنني (حلولي) لبيت شعر قلته من قصيدة، وآخر ذكر أني (صوفي) لعبارة قلتها في شريط، وثالث ذكر أني (خارجي) لأن لي قصيدة وأنا طالب بالثانوية بعنوان (دع الحواشي واخرج)، ومقصودي: أيها العالم، اخرج للناس معلماً ومربياً ولا تكتفِ فقط بتحقيق الحواشي، فقال الأخ معلّقاً على كلامي: فانظر إليه يا أخي كيف يقول: (دع الحواشي واخرج) ومقصوده اخرج على والي الأمر!! فبالله عليكم هل في كلامي ما يُفهم عند المسلمين أو اليهود أو النصارى أن قصدي اخرج على والي الأمر، وذكر آخر أنني (مرجئ) لأنني أكثرِ من ذكر التوبة والرحمة حتى سهّلت

المعاصي للناس، وأنا لا أنكر أن هذه المذاهب والجماعات والأفكار موجودة، ولكن الإنكار على من نصبوا أنفسهم قضاةً على عباد الله يصنِّفونهم على كل كلمة وقصيدة ومحاضرة وكتاب، قال الزمخشري عن تصنيف الناس:

إذا سألوا عَنْ مذهبي لم أبُحْ به
وأكْتُمُه كتمانُهُ ليَ أسلَمُ

فإن حَنَفيًّا قُلتُ قالوا: بأنّني
أُبيحُ الطّلا وهو الشرابُ المحرّمُ

وإن مالكيًّا قلتُ قالوا: بأنَّني
أبيحُ لهم أكْلَ الكلابِ وهمْ هُمُ

وإن شافعيًّا قلتُ قالوا: بأنَّني
أُبيحُ نكاحَ البِنْتِ والبنتُ تحْرُمُ

وإن حنبليًّا قلتُ قالوا: بأنّني
ثقيلٌ حُلُوليٌّ بغيضٌ مُجسِّمُ

وإن قلتُ من أهل الحديث وحِزْبِه
يقولون: تيسٌ ليس يَدْري ويَفْهمُ

تَعَجّبتُ من هذا الزمانِ وأهلِه
فما أحدٌ مِنْ أَلسُنِ الناس يَسْلمُ

أيها الناس، أغلقوا محاكم التفتيش في أذهانكم، وأوقفوا ثكنات التجسس والاستخبارات في عقولكم، وارفعوا المشانق التي نصبتموها للآخرين، ويا أيها العلماء والدعاة، صونوا ألسنتكم من الخوض فيما نهى الله عنه، ويا أيها الكتّاب، اغمدوا أقلامكم عن التجريح والتشويه والهمز واللمز والغمز ولا تحكموا إلا ببيّنة كالشمس في رابعة النهار (إلا من شهد بالحق وهم يعلمون)، أما الظنون والأوهام

والوساوس فهي تليق بمرضى النفوس، فقراء القيم، خواة الضمائر، يقول ابن رشيد (بالشعبي):

ما يستشكْ يا حسين كودْ الرديينْ

وألا ترى الطيّبْ وسيعٍ بطانَهْ

الفكر العربي بلا هوية

لا يوجد للفكر العربي المعاصر معالم ثابتة ولا مسارات محدّدة، بحيث يتميز عن غيره من أفكار الأمم والشعوب، فهو متماهي وعشوائي إلى درجة دخول الديني واللاديني والمؤمن والملحد تحت اسم الفكر العربي، وإذا لم يكن لهذا الفكر شخصيته البارزة والمتفردة عن الأفكار الأخرى فلماذا نسميه الفكر العربي؟ فهو إذاً كغيره من الأفكار كالفكر الغربي والصيني والكوري ونحو ذلك، ونحن العرب شرفنا الوحيد هو رسولنا ﷺ الخاتم وما جاء به من عند ربه تعالى، أما مآثر الجاهلية الجهلاء، أو شجاعتها الهوجاء، أو مكارمها الرعناء، فعند الأمم والشعوب أضعاف مضاعفة من هذا الكم من الأخبار والروايات والقصص، ولماذا لا يعلن الفكر العربي بصراحة وشجاعة ووضوح أن رسالته هي رسالة الإسلام، وأن منطلقاته من الوحي المقدس، وأن هويته ربّانيّة محمّدية لا مساومة في ذلك ولا تنازل، حينها يُعرف الفكر العربي بهذه البصمة ويصبح له لون معروف، ومكان مرموق، ورسالة محدّدة محترمة، وإذا لم يحصل هذا التحديد فما الفائدة فيما أن يُقال: الفكر العربي بل الأفكار العربية من إسلامية وقوميّة وبعثية وعلوية ودرزية ونصيريَّة وناصريَّة ونصرانيَّة، وسوف يدخل في هذا الفكر الشعارات القومية الزائفة، يقول الشاعر العربي القومي البعثي (طبعاً بلا إسلام):

آمنت بالبعث ربًّا لا شريك له

وبالعروبة ديناً ما له ثاني!!

وسوف يشمل الفكر العربي هتافات الشاعر القومي العربي (طبعاً بلا إسلام).

القائل:

هبُوا لي ديناً يجعلُ العربَ ملةً

وسيرُوا بجثماني على دينِ برهمِ

سلامٌ على كفرٍ يؤلّفُ بيننا
وأهلاً وسهلاً بعده بجهنّمِ

ويصبح الفكر العربي بلا هوية كثمن شاة الأعرابي التي عرضها بالسوق للبيع فقيل له: بكم شاتك؟ فقال: شاتي بسبعة دراهم وقد طُلبت مني بثمانية فإن كنت تريدها بتسعة فخذها بعشرة، لماذا يخجل الفكر العربي المعاصر من إعلان هويته الإسلامية، بينما أعلن الرفاق الشيوعيون قديماً في عدن هويتهم، وأعلن البعثيون في أول بيان لهم رسالتهم، وصرّح الضبّاط الأحرار بتوجههم، وكل دعوة أو منظمة أو مؤسسة أو كيان يعلن بقوّة وبشجاعة عن مبادئه وهويته إلا الفكر العربي فإنه غامض ومتردد رمادي اللون: ﴿ مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾. كما قال عمران بن حطان:

يومٌ يمانٍ إذا لاقيتُ ذا يمنٍ
وإن لقيتُ معدّياً فعدناني

لا نريد للفكر العربي أن يعود إلى ملاعب الوثنية في داحس والغبراء، وعبس وذبيان، ومراتع الجهل، والتخلف في مغاني اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، نريد فكراً مؤمناً بالله في قافلة أبي بكر وعمر ومالك والشافعي والغزالي وابن تيمية وابن رشد وابن خلدون وإمام القافلة سيد الخلق محمد ﷺ:

فإمّا حياةٌ نظّم الوحيُ سيرَها
وإلا فموتٌ لا يسرُّ الأعاديا

وتأكد من بضاعة الفكر الوافدة إليك بأن يكون الطابع المسجل ربّانيًّا محمديًّا والشركة المنتجة: ﴿ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَا ﴾، والوكلاء الوحيدون: ﴿ رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ ﴾، والعلامة الفارقة ﴿ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ﴾، والفكر العربي بلا وحي هو المسؤول عن

هزائمنا ومآسينا، فهو الذي هزمنا في حزيران وسلَّمَ سيناء وباع الجولان واحتل الكويت وضرب الرياض بصواريخ الأسكود، وحارب دعوة التضامن الإسلامي التي أطلقها الملك فيصل، وكل شؤم دخل علينا فهو من الفكر العربي الأرضي المحارب للدّين، وكل انتصارات حصلت لنا هي ثمرة لاعتصامنا بحبل الله في بدر وحنين واليرموك والقادسية وعين جالوت، مع الشكر للشاعر الفيلسوف العالمي محمد إقبال وهو يحيي التاريخ الإسلامي في المشرق، حيث يقول مخاطباً ربّه عز وجل:

إذا الإيمانُ ضاع فلا أمانَ
ولا دنيا لمن لم يُحيي دينا

ومن رَضِيَ الحياةَ بغير دينٍ
فقد جعلَ الفناءَ لها قرينا

فيا صاحب الجمرك، لا تتأمرك، وأحذّرك من مزدك، وفوّض إلى الله أمرك، واعرف قدرك، ووحّد الله ولا تشرك.

أيتها العير إنكم لسارقون

ينبغي أن نستحي من ممارسة التزوير الذي نقوم به صباح مساء، فقد عرفت بعض الناس جعل لنفسه لقب الدكتور وهو لم يحصل على الدكتوراه، وبعض طلبة العلم تظاهر بأنه يحفظ كذا وكذا متناً وهو لم يحفظها، وبعض التجار أوهم الناس أن لديه مشروعات مساهمة فتورّط الناس معه، وساهموا فأفلسوا، وبعضهم ضحك على البسطاء حتى باعوا بيوتهم وأودعوا أموالهم عند هذا المفتري فأخذ المال وهرب لكنه لا يستطيع أن يهرب يوم القيامة، واستمعتُ لرجل يكتب في التاريخ ادّعى في المجلس أنه شاهد سد ذي القرنين على حدود الصين وقد كذب بعد ظهور برهان كذبه، وبعضهم يدعي أنه رأى رؤيا منامية هائلة وهو كاذب، وقس على ذلك صنوف التزوير، فلماذا هذا؟! أمن أجل الناس؟! ومن هم الناس؟ ما قدرهم حتى يُعصى الله من أجلهم؟

قد كان السابقون الأخيار ينادون بأسمائهم المجردة، ويذكر للواحد إنجازات عملية، فيقولون: أبو بكر الصديق حضر الغزوات كلها، وأنفق ماله كله في سبيل الله، وكان مع الرسول ﷺ في الغار والهجرة والعريش يوم بدر ونحو ذلك، فلما جاء المتأخرون قالوا للواحد: سماحة العلامة الفهّامة، وحيد العصر، أعجوبة الدهر، النظّار المجتهد، البحر الجهبذ، وآية الله، وحجة الإسلام، فلان بن فلان، ولهذا عَلَت وسبقت الأمة في أول عهدها، وأخفقت ورسبت في عصرنا، حتى إني رأيت بعض من يذكر سير بعض المتأخرين يقول: ما رأى مثل نفسه، وعجزت النساء أن يلدن مثله، ولو كان في بني إسرائيل لكان عجباً، ولو حلفت بين الركن والمقام ما رأيت مثله لصدقت، ونحو هذا الكلام الفارغ الفاضي الفاشل.

ونحن نحتاج إلى كتابة تاريخ صادق لنا وشفاف وعادل، بدل تاريخنا الذي أغرق في سيرة الملوك والخلفاء فقط، حتى ذكر لنا جواريهم وموائدهم

وملابسهم، وأهمل تاريخ الأمة العلمي والإصلاحي والاجتماعي، ثم الواجب أن تذكر الحسنات والسيئات بلا أهواء ولا عواطف ولا ظلم، وإنما الإنصاف مع ذكر سنن الله في الأمم والشعوب واستخلاص الدروس النافعة من كل حادثة وواقعة تستحق الدراسة، تاريخنا في أكثره سرد قصصي، وتهويل مع ذكر عجائب وغرائب أحياناً لا يصدقها العقل مع المبالغة في الأوصاف والأرقام، ونحن بحاجة إلى من يمحص تاريخنا، ويغربله من الأوهام، ويقدّمه في أحسن صورة، ويقوم بذلك فريق من العلماء الملمين بالتاريخ وفقه التاريخ، وحبذا لو ربط هذا التاريخ بالقرآن، بحيث تتجلى سنة الله في كتابه في الأمم والدول والعبر المذكورة في كتابه عن هذا الباب.

فالتاريخ لا يجوز أن يزوَّر، ومن التزوير الثقافي اعتداء بعض المؤلفين على كتب سابقة أو معاصرة وسلخها في مؤلفاتهم دون الإشارة للمؤلف السابق، ومنهم من أخذ قصائد لغيره ونسبها لنفسه، وذكروا في السير والأخبار تهاويل وغرائب مثل كتاب «بدائع الزهور» و «مروج الذهب» و «الزير سالم» ونحوها، حتى ذكروا أن أحد ملوك العمالقة كان طويلاً ضخماً إلى درجة أنه كان يدخل يده في البحر، فيصيد سمكة ثم يرفعها ويشويها عند الشمس ويأكلها!! وهذا هذيان، وذكروا في عدد الجيوش في منطقة صغيرة ألف ألف مقاتل أي مليون، وأرضهم لا تتسع لهذا، وعدد سكانهم لا يُخرِج عُشْر هذا العدد من المقاتلين.

وقد رد مثل هذه الغرائب ابن خلدون وبعض المعاصرين من المؤرخين والكتّاب يذكر أن الزعيم الفلاني الميت حدّثه بكذا واتصل به وشاوره ومازحه وأكل معه؛ ليعظم هذا المتكلم عند الناس وهو مطمئن لعدم انكشاف كذبه، لأن هذا الزعيم مات من زمان، وبعض طلاب العلم يذكر أنه حفظ عشرات المتون، وقرأ آلاف المجلدات، وكان يحفظ في اليوم مائة بيت، ولكنه للأسف مرت به ظروف فنسي كل شيء حتى جزء عمَّ، وهذا من التزوير العلمي، وقبل أربعمائة سنة حكم مصر

حاكم ظالم طاغية، وأصاب مصر زلزال خاف منه هذا الحاكم وأراد أن يتوب، فقام شاعر متملّق فأنشد الحاكم قوله:

ما زلزلت مصرُ من كيدٍ ألمَّ بها
لكنها رقصَتْ من عدلِكم طربا

فعاد الحاكم إلى ظلمه، وهذا من التزوير الأدبي، والقرآن هدّد الجميع بقوله تعالى: ﴿سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْئَلُونَ﴾.

كفّوا عن النياحة

الكثير منّا يقيم حفلاً جنائزياً، ويحيي مناحة ويعيد ويبدئُ في البكاء على أطلال الماضي وجلد الذات، ونكرر دعاةً وكتّاباً وإعلاميين مدح مجدنا الماضي وسبّ حاضرنا، ونصبّح الناس ونمسّيهم ببطولاتنا السابقة، ونذكرهم بأن عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد وصلاح الدين منّا، والعالم يعرف ذلك تماماً حتى جولدا مائير وموشى ديان، ومن المعلوم عالمياً أن دين الإسلام دين عالمي حضاري عظيم، وقد اعترف بعظمته أساطين الشرق والغرب، وفي لقاء الحوار الوطني عند خادم الحرمين نقل الشيخ صالح الحصينّ عن الرئيس الأمريكي السابق (نكسون) في كتابه «الفرصة السانحة» قوله: «أمريكا دولة قويّة، ولكن للأسف الأفكار العظيمة في الإسلام».

والمقصود: أن نثق بأنفسنا، وأن نرفع رؤوسنا، وأن نفرح بنعمة الله علينا كما أمرنا ربنا، قال تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ وقال تعالى ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾، أما أن نسبَّ أنفسنا صباح مساء، وننوح على أطلال ماضينا، ونحوّل أفراحنا إلى عزاء، وأعيادنا إلى بكاء، فهذا إحباط وضعف وخور.

وقد كنت قدّمتُ قبل سنتين في (قناة المجد) لقاءً عن فرحة العيد، فاتصل بي أحد الإخوة منزعجاً من دعوتي للسرور والابتهاج بالعيد، ثم أخذ يقول: كيف نفرح والقدس سليبة؟ كيف نفرح وفلسطين محتلة؟! كيف نفرح والعراق تعيش الدمار؟ كيف نفرح وأفغانستان تحترق؟! إلى آخر تلك القائمة من ذكر المآسي، وأنا أعلم أنه بعدما (صعقنا وصقعنا) بهذا الاتصال، وغسّلنا بهذا الكلام سوف ينقض على كبسه أو مثلوثة ويلتهمها إلى درجة التخمة، وسوف ينسى فلسطين والعراق وأفغانستان في ستين داهية، إن علينا أن نعترف بسنن الله التاريخية، قال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ وقال تعالى: ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ﴾، صحيح أننا حكمنا العالم في فجر الرسالة المحمدية،

وأسسنا أعظم حضارة عرفها الإنسان، ولكننا كما أراد الله حسب السنن الكونية والتاريخية انحصرنا كما انحصر غيرنا، ليأخذ غيرنا دورته الفلكية في الحضارة، ونحن لم ننتهِ من العالم فصوتنا مسموع، ومكاننا معروف، وبطولتنا حاضرة، وديننا الآن هو أعظم دين مؤثر وحيّ في الكون، نعم خسرنا أشياء وربحنا أشياء، وتقدمنا في ميادين وتأخرنا في ميادين أخرى، ولكن العجيب أنه لما فتح أجدادنا العالم بالإسلام تحوّل أكثر الشعوب المفتوحة إلى الإسلام لعظمته ولصلاح حامليه وصدق أبنائه، لكن بالله عليكم هل سمعتم اليوم أن واحداً من الشعوب التي احتلتها أمريكا تحول إلى أمريكي؟ ها هي أمريكا تدخل البلدان بالدبابات والطائرات، تبشّر بالعدل والديمقراطية، وتستقبلها الشعوب بالرصاص واللعنة، وتسحب جنودها في الطرقات، وتبصق على صور زعمائها وتدوسها بالأقدام، ومن شك في كلامي عن مسألة ابتهاج العالم بالفاتحين المسلمين، فليقرأ شهادات (جوستاف لوبون، وتونبي، وغوته).

فيا أيها الناس، عيشوا المواسم الإسلامية كما أرادها الله ورسوله ﷺ من الفرح والابتهاج وذكر النعمة، وتذكروا الماضي المجيد لأخذ العبرة، واستلهام المثُل العليا، وعيشوا الحاضر بتفاؤل، وثقة بالنفس، وانتظروا المستقبل الواعد بفجره المشرق، ونصره الموعود، وفتحه المرتقب، إن صنّاع النياحة والقائمين على حفلات التأبين والمناسبات الجنائزية لم يزيدونا إلا جرحاً إلى جرح ووهناً على وهن، ومن كان الله ربّه ومحمد ﷺ نبيه والقرآن كتابه والكعبة قبلته والجنة موعده، فلماذا يُصاب بالإحباط والخور والضعف والخذلان؟.

نحن أبناء الفاتحين، نحن أحفاد المجددين، وإذا صدقنا الله واجتهدنا وثابرنا، فسوف نعود إلى محل الصدارة وصنع القرار في العالم، وأخذ كرسي القيادة في المعمورة، أما العويل والنياحة فلم تبنِ قصراً، ولم تفتح مصراً، ولم تصنع حضارة، ولم تستردَّ وطناً، ولم تحي شعباً.

نحن العرب قساة جفاة

أكتب هذه المقالة من باريس في رحلة علاج الركبتين، وأخشى أن أُتَّهم بميلي إلى الغرب، وأنا أكتبُ عنهم شهادة حق وإنصاف، ووالله إن غبار حذاء محمد بن عبدالله ﷺ أحبُّ إليّ من أمريكا وأوروبا مجتمعَتين، ولكن الاعتراف بحسنات الآخرين منهج قرآني، يقول تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾، وقد أقمت في باريس أُراجع الأطباء، وأدخل المكتبات، وأشاهد الناس، وأنظر إلى تعاملهم، فأجد رقة الحضارة، وتهذيب الطباع، ولطف المشاعر، وحفاوة اللقاء، حسن التأدب مع الآخر، أصوات هادئة، حياة منظمة، التزام بالمواعيد، ترتيب في شؤون الحياة.

أما نحن العرب فقد سبقني ابن خلدون لوصفنا بالتوحش والغلظة، وأنا أفخر بأني عربي؛ لأن القرآن عربي والنبي عربي، ولولا أن الوحي هذّب أتباعه لبقينا في مراتع هبل واللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، ولكننا لم نزل نحن العرب من الجفاء والقسوة بقدر ابتعادنا عن الشرع المطهر، نحن مجتمع غلظة وفظاظة إلا من رحم الله، فبعض المشايخ وطلبة العلم، وأنا منهم جفاة في الخُلُق، وتصحّر في النفوس، حتى إن بعض العلماء إذا سألته اكفهرَّ وعبس وبسر. الجندي يمارس عمله بقسوة ويختال ببدلته على الناس، من الأزواج زوج شجاع مهيب وأسدٌ هصور على زوجته، وخارج البيت نعامة فتخاء، من الزوجات زوجة عقرب تلدغ وحيّة تسعى، من المسؤولين من يحمل بين جنبيه نفس النمرود بن كنعان كِبراً وخيلاء، حتى إنه إذا سلّم على الناس يرى أن الجميل له، وإذا جلس معهم أدى ذلك تفضلاً وتكرماً منه، الشرطي صاحب عبارات مؤذية، الأستاذ جافٍ مع طلابه، فنحن بحاجة لمعهد لتدريب الناس على حسن الخُلُق، وبحاجة لمؤسسة لتخريج مسؤولين يحملون الرقة والرحمة والتواضع، وبحاجة لمركز لتدريس العسكر اللياقة مع الناس، وبحاجة لكلية لتعليم الأزواج والزوجات فن الحياة الزوجية، المجتمع عندنا يحتاج

إلى تطبيق صارم وصادق للشريعة، لنخرج من القسوة والجفاء الذي ظهر على وجوهنا وتعاملنا، في البلاد العربية يلقاك غالب العرب بوجوه عليها غبرة ترهقها قترة، من حزن وكبر وطفشٍ وزهق ونزق وقلق، ضقنا بأنفسنا وبالناس وبالحياة، لذلك تجد في غالب سياراتنا عُصي وهراوات لوقت الحاجة وساعة المنازلة والاختلاف مع الآخرين، وهذا الحكم وافقني عليه من رافقني من الدعاة، وكلما قلت: ما السبب؟ قالوا: الحضارة ترقق الطباع.

نسأل الرجل الفرنسي عن الطريق ونحن في سيارتنا، فيوقف سيارته ويخرج الخارطة، وينزل من سيارته ويصف لك الطريق، وأنت جالس في سيارتك، نمشي في الشارع والأمطار تهطل علينا فيرفع أحد المارة مظلته على رؤوسنا، نزدحم عند دخول الفندق أو المستشفى فيؤثرونك مع كلمة التأسف، أجد كثيراً من الأحاديث النبوية تُطبَّق هنا، احترام متبادل، عبارات راقية، أساليب حضارية في التعامل، بينما تجد أبناء يعرب إذا غضبوا لعنوا وشتموا وأقذعوا وأفحشوا، أين منهج القرآن: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ ﴿ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾ ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾.

وفي الحديث: «**الراحمون يرحمهم الرحمن**»، «**المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده**»، «**لا تباغضوا ولا تقاطعوا ولا تحاسدوا**».

عندنا شريعة ربّانيّة مباركة لكن التطبيق ضعيف، يقول عالم هندي: (المرعى أخضر، ولكن العنز مريضة).

امرأة تنادي، فهل من مجيب؟

أصبح مـال المرأة وسيلة لابتزازها وقهرها من قبل زوج غشوم ظلوم، أو والدٍ قاسٍ جاف، أو أخ قاطع عاق، وهناك عشرات القصص تثبت أن سبب عضل المرأة عـن الـزواج وظلمها هو مالها، الـذي كسبته: إما من مـيراث أو وظيفة أو تجارة، هنـاك أب عامي جلف جاهل بالشرع المطهر منـع ابنته المطلقة أم ثلاث بنات من الزواج؛ لأنه يبتز راتبها كل شهر، فكلما تقدم لها الكفء وضع في طريقه ألف عقبة مـن شروط وتعهدات حتى يفشل موضوع الـزواج، ومات رجل عن زوجته ولها منه أربعـة أبناء، فذهبت لوالدها الضعيف الهش وأخويها العاقين مدمني المخدرات، فأذاقوها صنوف العذاب؛ لأنها مدرسة لها راتب شهري، وكلما استنجدت بوالدها خـارت قـواه وجبنت نفسه أمـام سطـوة الابنين الفاجريـن الفاشلـين، والتجأت بأطفالها إلى الجيران، خوفاً من ضرب أخويها في مشهد مأساوي.

وُجد آباء جشِعون طامعون حبسوا بناتهم من أجل رواتبهن، حتى فاتهن ركب الزواج، وذبلت عندهن زهرة العمر، وفي المجتمع رجل شرس الأخلاق جاف الطباع بخيـل النفس قاسي القلب، منع بناته الست مـن الزواج؛ لأنه يسلبهن رواتبهن في آخـر كل شهر، حتى اتصلت إحداهن بأحد العلماء وهي تبكي، وتدعو على والدها بـأن يحرمه الله الجنة كما حرمها الزواج، وزوّج رجـل مسن أحمق بنته فاشترط لنفسـه ألفي ريـال في كل شهر من راتب ابنته حتى بعد الـزواج، ضريبة على هذه المسكينـة الأسيرة، مقابل أن يسمح لها بالـزواج، وطلّق عشرات الأزواج زوجاتهم لأنهـن رفضـن إعطاءهـم رواتبهن كاملـة غير منقوصـة، وكأن المـرأة سلعة تُباع وتُشترى، أو (بقّالة) تُدر الربح لصاحبها، لقد صار مال المرأة عبئاً عليها في كثير من الحالات، فشقيت به بدل أن تسعد به، وأذلّها به أبٌ رعديد جبان شره، أو زوج مخـذول ناقص الأهلية فاقـد القوامة، أو أخ حاقد ضحل المـروءة فاقد الشهامة، وإذا اشتكـت المـرأة للقضاء ردوهـا لأوليائها القساة الظلمـة، فصار الخصم هو

الحكم، والشاهد هو العدو، والمرأة هي الضحية، هناك سيل جارف من الشكاوى في المحاكم من هذا الظلم الواقع على المرأة بسبب راتبها، وعسى أن تقام لجنة لحقوق المرأة تستقبل هذه القضايا وتحلها، ويكون للدولة سلطة على هؤلاء الأوغاد المردة، يُبتدأ بنصحهم ووعظهم وإرشادهم، فإن لم يُجْدِ فبتأديبهم بأسواط وحبسهم أياماً وأخذ التعهد عليهم، فإن الله يردع بالسلطان ما لا يردعُ بالقرآن، أين تذهب المرأة وإلى أين تشتكي؟ من يسمع صراخها؟ ومن يمسح دمعها؟ ومن يقيل عثرتها؟ ومن يجبر كسرها؟ إذا كان أبوها جباراً عنيدا، وزوجها شرساً مريدا، وأخاها عاقاً عنيدا، وابنها أحمق بليدا، والقضاء يضيّع شكواها في دهاليز التحري والتأمل، والدولة لا تعير هذا الأمر اهتماماً، ونستطيع أن نصنّف مجلدات في قصص القهر والكبت والظلم والعضل والإذلال، الذي تتعرض له المرأة في مجتمعاتنا.

لقد أعلن أبو بكر الصديق في أول يوم من خلافته سياسة حكومته الجديدة، فقال: (الضعيف فيكم قوي حتى آخذ الحق له، والقوي فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه)، ووقف عمر مع جارية حتى ردّ الحق لها، وقبل ذلك يقول معلم البشرية ﷺ: «**الله الله في النساء، فإنهن عوانٍ عندكم**» يعني: أسيرات، ارفعوا صوت الظلم عن المرأة، شكّلوا لجاناً لمناصرتها، وخذوا على يد السفيه الأرعن، وأنصتوا لآهات المحرومات وزفرات المظلومات وأنين المضطهدات وتوجّع المقهورات، قبل أن تُشكّل لجان للرأفة بالحيوان، دعونا نشكل لجاناً للرحمة بالإنسان، وهيا نشارك الشاعر في صرخة استغاثة بالحي القيوم، إذ يقول:

إذا جار الظلومُ وزاد بغياً

وقاضي الأرضِ أجحفَ في القضاءِ

فويلٌ ثم ويلٌ ثم ويلٌ

لقاضي الأرضِ من قاضي السماءِ

ثقافة الموت

أكثرنا من ثقافة الموت قراءةً وتطبيقاً ومحاضرات ودروسا، نحن خُلقنا للحياة، ولكننا حوّلنا حياتنا إلى الموت، فغالب الخطب والدروس تتحدث عن الموت وتهمل الحياة، وأنا أعلم أن الموت لابد منه، والاستعداد له واجب، ولكن قبل أن نموت علينا أن نعيش، وقبل أن نرحل علينا أن نبني وأن نعمر، وقبل أن نودّع الحياة علينا أن نترك أثراً جميلاً وذكراً حسنا من عمل صالح وخُلُق نبيل ومشروع نافع وذرية طيّبة ومؤسسة رائدة وكتاب مفيد، ونحو ذلك من صنوف البر والإحسان.

إن الحياة في سبيل الله أعظم من الموت في سبيله؛ لأن الحياة في سبيله سبحانه طويلة وجميلة، فيها علم وعمل، ومعتقد وأخلاق، وأخذ وعطاء، ودنيا وآخرة، وحقوق وواجبات، أما الموت فهو لحظة انتقال من الدنيا إلى الآخرة، إن كثيراً من الخطب تدعونا إلى ترك الدنيا واليأس والقنوط والإحباط، فأصبح الناس لا يفكرون إلا في طريق التخلص من الحياة، وصار عندهم قناعة أن هذه الحياة لا تستحق الاحتفاء والاهتمام بها، وتكونت لدى الكثير فكرة أنه لا داعي أن نعيش طويلاً، وأن الأفضل اختصار هذه الحياة والانتقال للآخرة.

إن الأبرار وعلى رأسهم رسول الهدى ﷺ بنوا الحياة، وشادوا الحضارة، وأسسوا القيم الراشدة، وبنوا صروح المعرفة، أما أرسل جيوش الفتوح تنشر العدل والأمن والإيمان في العالم؟ أما سار الخلفاء بعده يواصلون مسيرة الإعمار والبناء ونشر ثقافة الحب والسلام؟ فخلف من بعدهم خلف ضاقوا بالحياة وبأهلها لأمراضهم النفسية وعقدهم الروحية، فزهّدوا العالم في علمه، والمهندس في آلته، والنجار في فأسه، والمزارع في حقله، والطبيب في مشرطه، وأرادوا من الجميع أن يتركوا دورهم في الحياة، ويلبسوا الأكفان استعداداً للموت، لا وألف لا، سوف تكون الحياة أكثر جمالاً دون هؤلاء المنفرين القانطين المحبطين، إن الحياة في

سبيل الله رسالة عظيمة ربّانيّة، يتحول بها الإنسان من صفر لا قيمة له إلى رقم صعب له قيمته، فيصبح التاجر فرحاً مسروراً بتجارته المباركة، حيث يأخذها من حلال ويصرفها في حلال، ويصبح الفلاح مغرداً منشداً في حقله؛ لأنه يعلم أنه مأجور من الله ومشكور من خلقه، ويصبح الأستاذ مستبشراً بفضل الله وهو يعلم أنه يُعلِّم جيلاً ويثقف أمة ويهدي قلوباً، ويصبح الجندي مطمئناً لمهنته وهو يحمل بندقيّته يحرس بها الأمة ويحمي بها الوطن ويدافع عن المكاسب.

أيها العلماء حببوا الحياة في سبيل الله للناس، ليشعر الإنسان أن لوجوده معنىً، ولخلقه حكمةً، ولحياته هدفًا، حينها نترك حياةً جميلة وحضارةً مباركة كما تركها أجدادنا لنا، إن الذي يفكر كيف يموت سوف يقف نتاجه، وينتهي إبداعه، ويموت نفعه، أما الذي يفكر كيف يعيش فسوف يشرق كما تشرق الشمس، ويسطع كما يسطع الفجر، وينفع كما ينفع الغيث، إن القرآن دعا لحياتين ومشهدين ومرحلتين: للحياة في سبيل الله والموت في سبيل الله:

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾.

كارثة: (قَبيلي وخَضِيري)

انتشرت في مجتمعاتنا مقولة: (قبيلي وخضيري)، وهي من مخلّفات الجاهلية، ومن نفايات العصبية القبلية التي جاء الإسلام بكسر أصنامها، وتمريغ أنوف أصحابها بفأس ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾، والفاشل في الحياة يتعلّق بعظام الأموات، فيفتخر بالآباء والأجداد، والمحبط والتافه يغنّي بأمجاد ليست له.

وقد رفع الإسلام أقواماً من كافة الألوان والشعوب والأسر؛ لأنهم اعتزوا بدينهم، وحقّقوا الفضيلة في حياتهم، وحملوا رسالتهم بصدق، وأدّوا أمانتهم بإخلاص، وكان من نجوم التاريخ أناسٌ لا تُعرف قبائلهم ولا عشائرهم، ولكنهم احتلّوا مكان الصدارة، وجلسوا في كرسي الرّيادة، واستولوا على مقاليد السيادة بهمتهم وطموحهم وصلاحهم وإبداعهم، كبلال الحبشي، وصهيب الرومي، وسلمان الفارسي، وطارق بن زياد، وجوهر الصّقلّي، وأبي حنفية، وألوف مألّفة من أمثالهم وقف لهم التاريخ احتراماً، ووقّع لهم الدهر براءة اختراع المكارم والمُثُل العليا والسيرة الحميدة.

وحاول محمد بن عمرو بن العاص الأمير بن الأمير في مصر أن يخرم قاعدة: «الناس سواسية كأسنان المشط، كلكم لآدم وآدم من تراب»، لأن قبطيّاً سبق فرس محمد بن عمرو، فلطم محمد بن عمرو القبطي، وقال له: أتسبقني وأنا ابن الأكرمين؟ فشكى القبطي إلى عمر بن الخطاب هذه المظلمة، استدعى عمر أمير مصر عمرو بن العاص وابنه محمدًا إلى المدينة، وجمع الصحابة وأخذ درّته، وقال: والله لا يحول بيني وبينهما أحد، فطرح محمد بن عمرو أرضاً وبطحه وجلده، وصاح في وجهه وفي وجه أبيه: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا؟

عندنا اليوم مرض اجتماعي عند البعض يُسمى (عدم الثقة بالنفس)، فتجده لنقصه وتقصيره وخموله وفشله يبحث عن مشجب يعلّق عليه هزائمه وإخفاقاته، فيلمز هذا في نسبه، ويغمز ذاك في عرضه، ويهمز الآخر في أخلاقه، وقد شكى إليّ شاب جامعي اضطهاد زملائه له في الفصل بأنه خضيري، حدثني بذلك وعيناه تترقرقان بالدموع؛ لأن هؤلاء الطلبة الفاشلين لما أقفرت قلوبهم من القيم، وجفّت أرواحهم من المروءة، أرادوا أن يخرقوا سفينة الإخاء والمحبة التي أتى بها الإسلام.

ونقول لكل أحمق بليد يفرّق بين أبناء المجتمع الواحد على حسب أصولهم: (اخرس يا جبان)، فقد خالفت الشرع والعقل، وسعيت في الهدم والإفساد، ونقول لكل رعديد غبي يعيّر الناس بأنسابهم ويعيبهم بأحسابهم: (اخرس يا جبان) لو كنت تحمل طيب المعدن وأصالة المحتد، كنت عرفت أن الإنسان بتقواه وبعلمه وصلاحه وإبداعه، إن أبا لهب الهاشمي القرشي لما حارب الله وكذّب الرسالة ورفض الحق عاد بالخيبة والندامة وأصبح من الخاسرين، وإن بلالاً الحبشي لما أطاع ربّه، واتّبع رسوله ﷺ، وملأ قلبه بالنور، صار رمزاً من رموز الفضل والخير والنبل والفلاح في أمة الإسلام.

أيها المثير النعرات الجاهلية، والموقد نار العصبية القبليّة: (اخرس يا جبان) إن الإسلام لم يترك لك أن تلغو في أعراض الناس كما يلغو الكلب في الإناء، بل حذّرك وأمثالك من اللعب بالنار، يقول تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ ويقول سبحانه: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾، ولا شك أن المعادن الطيّبة إذا صاحبها عمل صالح وإنتاج نافع وهمة عالية ومروءة سامقة، أن ذلك نور على نور، ولكن ماذا نفعل بمن أصله طيّب وأسرته عريقة، ولكنه كذّاب أشِر، وخبيث متمرّد، وأفّاك أثيم، تجده لصًّا في حياته، أو مروِّجًا للمخدرات، أو محاربًا للقيم، أو بخيلاً ذليلاً خاسئا، أو تافهاً ناقصاً حقيرًا، يقول أبو الطيب:

وَإذا أَتَتكَ مَذَمَّتي مِن ناقِصٍ
فَهِيَ الشَهادَةُ لي بِأَنّي كامِلُ

هل يريد هؤلاء (الطراطير) أن يعيدوا الأمة إلى عهد (داحس والغبراء) وعصر (عبس وذبيان)، أو إلى ملاعب الوثنية والتمييز العنصري في الولايات المتحدة قديماً وجنوب أفريقيا، يجب أن نُفهِم كل (أبله): أن ديننا أتى لإكرام الإنسان، وحفظ حقوقه، وأنه وُلد حرّاً عبداً لله لا عبداً لغيره، ليس عندنا في الإسلام خط (220) ولا خط (110)، عندنا خط واحد، يقول سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾.

ما هي حقيقة العيد؟

الكثير من المسلمين جعلوا من العيد مظاهر من اللباس الجديد والأفراح وتبادل الزيارات والجلوس على الموائد، وهذا مباح في حدود الشرع، ولكن أين المقصد الأسمى من العيد، وهو غسل القلب من الأحقاد، والمصالحة مع عباد الله، وتطبيع العلاقة مع المؤمنين، وتنظيف الضمير من الخيانة والخبث والمكر، وإصلاح الداخل بالإيمان والحب والسلام، ما معنى أن نلبس ثياباً جديدة فارهة على قلوب عشعش فيها الحسد والبغضاء، وفرّخ فيها الكره والضغينة والغل؟ ما معنى أن نتبادل يوم العيد ابتسامات صفراء، وقلوبنا تحترق بالإحن والشحناء؟ إن العيد مد جسور المحبة مع إخواننا وجيراننا، وإصدار عفواً عاماً عن كل من أساء إلينا، ومسامحة كل مقصر في حقنا؛ ليكون للعيد معنى، وتكون للفرحة قيمة؟!

كيف أجلس مع أخي وصديقي وجاري يوم العيد على مائدة الطعام، وأنا لا أحب له من الخير ما أحب لنفسي، وأكره له من الشر ما أكره لنفسي؟! إن العيد مناسبة إسلامية لإحياء الفرحة بالحق والدين الجديد الخاتم، وإظهار السعادة بنعمة الله علينا بالتآخي، فكيف نحوّله إلى مظاهر جوفاء، لا رسالة لها إلا المباهاة والتعالي على الناس؟! وهناك مسلكان مذمومان في العيد:

أحدهما: من يدعو إلى ترك الفرحة بالعيد تضامناً مع مآسي المسلمين في فلسطين والعراق وأفغانستان وغيرها، وكأن الحزن والتباكي سوف يحرر الأرض، ويحمي العرض، ويطرد المحتل، بل علينا أن نفرح بالعيد امتثالاً للرسول ﷺ، وإظهاراً لفرحتنا الكبرى برسالتنا العظيمة رسالة الإسلام، وإغاظةً للشيطان وحزبه، وانتصاراً على النفس الأمارة، وكبتاً لمشاعر الفشل والإحباط، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، والمسلك الثاني المذموم: تفريغ العيد من محتواه، وتعطيل مقصده الأسمى، وتحويله

إلى صور باهتة من ولائم ضخمة وعزائم فخمة ومشتريات غالية، بينما المخبر معطّل، والباطن مجمّد من فرحة العيد، فعقوق الوالدين صارخ، وقطيعة الرحم حاصلة، والاعتداء على حقوق الآخرين قائم، والمسلك الصحيح في العيد أن نجمع بين الجميل من لباس الأجسام والقلوب، وابتسام الفم والروح، ومصافحة اليد والنفس، وعناق أخوي يذهب كل بغضاء وهجر وقطيعة، إن العيد تجديد للقلب؛ ليكون بعد العيد أطهر وأنبل وأسمى، وليكون الإنسان عضواً صالحاً في المجتمع، ولبنة نافعة في صرح الأمة، وسوف يُحرم فرحة العيد عند المسلمين فريقان، لا يجدون له طعماً، ولا يبصرون له نوراً، ولا يفرحون به مع من يفرح:

الفريق الأول: الغالي في دين الله، والخارج على جماعة المسلمين، والساعي لسفك دمائهم وإزهاق أرواحهم، لأنه سيء الفهم للشريعة، ناقم على المجتمع، رافض لمبدأ الإخوّة مع المؤمنين.

الفريق الثاني: العدو للدّين المتحلل من تبعات الشريعة، المعرض عن النور الرّباني والهدي المحمدي، فهذا لا دخل له بالعيد، وهو نكرة في هذه المناسبة، وصفرٌ في هذه الفرحة الكبرى، وهو غريب على الأمة، نشازٌ في الملة، عقيم الإدراك عن المعاني الجليلة التي حفل بها الدين الإسلامي، وإنما يعيش الفرحة المؤمن العفيف الطاهر، المتصالح مع الله ومع نفسه ومع الناس، الهيّن الليّن، المتواضع للحق، المحب للفضيلة، البعيد عن الأذيّة، السليم من عقارب البغضاء، وحيّات الشحناء، وثعابين الحقد والحسد، هذا الذي فهم معنى العيد، وعرف رسالة العيد، وعاش فرحة العيد، فنقول له: عيد سعيد، وعمر مديد، ومنهج رشيد، ومنقلب حميد، ومثوى مجيد.

الإرهاب الفكري

منذ فجر التاريخ والعالم والمفكر بين فكّي السلطة أو الجمهور، فإن وافق السلطة وسايرها في كل أمر، ظهر له من العامة من يدينه، وينشر معايبه، ويحذِّر منه، ويقمِّصه ألقاب التبعية والإمَّعة، وعالم السّلطة والمداهن، والمشتري بآيات الله ثمناً قليلاً. وإن خالف السلطة ووافق الجمهور، حذّر منه السلطان على مذهب فرعون، حيث قال للرأي العام عن موسى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾، فإن لم يردعه هذا أدِّب بالحبس وبالجلد، تأديباً له وردعاً لأمثاله، فإن استمر في عتوّه، وصعّد من معارضته، قُطع رأسه؛ ليرتاح منه العباد والبلاد، وقد حوكِمَ سقراط، وحضر محاكمته في أثينا خمس مئة قاضٍ ومحقق وشاهد ثم شُنِق، وسُلِّط الحجاج على سعيد بن جبير فأعدمه، صيانة للأمة من علمه الغزير وفهمه الثاقب، واجتهد الإمام مالك في مسألة فجلده أبو جعفر حتى خلع يده.

ووُشي بالشافعي عند هارون الرشيد فأُحضر مقيداً بالحديد من اليمن إلى بغداد، ووقف الإمام أحمد في فتنة القول بخلق القرآن فمزَّق المعتصم ظهره بالسياط، وأجلب العامة على ابن جرير الطبري فكبسوا بيته ورموه بالحجارة، ووُشي بابن رشد فحُكِم عليه بالإقامة الجبرية في بيته، واضطهد ابن خلدون بأفكاره حتى ترك القضاء، وهُدِّد حتى هرب إلى قلعة بشمال أفريقيا، كتب فيها مقدمته ثم مات، ووُشي بالمتنبي عند سيف الدولة ففرَّ إلى كافور بمصر فحوصِرَ، ففرَّ إلى عضد الدولة بشيراز فضُيّق عليه، فهرب إلى صحراء بني أسد فذُبِحَ كما تُذبح الشاة، وذهب حسّاد ابن حزم الظاهري إلى السلطان فشهدوا عليه أنه ضال مبتدع متمرّد، فنفاه إلى البادية، وأحرق كتبه، وحذَّر الناس من شرّه.

وقام أعداء شيخ الإسلام ابن تيمية بحملة شعواء ضده، وطالبوا بقتله صيانةً للدين بزعمهم، فخُفِّف الحكم عليه بسجنه حتى مات، فإذا أراد أعداء النجاح

وخصوم الحقيقة بأحد النابهين واللامعين شرّاً أوغروا صدر الحاكم عليه، بحجة الحفاظ على الأمـة والملّة والمكتسبات حتى يبطش به، فإن نجى من هذه العصابة قام الجمهور عليه، وانتقدوا آراءه، وسعوا في القضاء على تراثه، والغالب أن العالم والمفكّر والشاعر يقع تحت سلطة الحاكم أو الجمهور، فإن أرضى الحاكم ورفق به ولم يخالفه في أي مسألة، صار من ندمائه وأصفيائه، حينها ينقضّ عليه الجمهور، محذّريـن ومنذريـن ومتربّصـين، فيفقد حضـوره وجمهـوره، وإن خالف الحاكم وأبـدى رأيه وصدع بمخالفته، تعلَّـق به الناس في الغالب، وجعلـوه رمزاً للتضحية والشجاعـة والتَّجرد، وحينها يعد له الحاكـم العدّة، ويجهّز له مراتب التأديب من منـع وحظـر، أو جلد وحبس، أو تصفية جسديـة في الثلث الأخير من الليل على يد مجهول، كما تفعـل الحكومات الثوريّة الفاقدة للشرعيّة، التي دخلت الأوطان على دبّابة مستعمر.

علـى طالب الحق والمنصف أن لا يحاكم صاحـب العلم والفكر من خلال رأي الحاكـم أو الجمهور، لكن بالبحث والاستقراء في علمه وفكره، كما قال علي رضي الله عنه: «اعرف الحق تعرف أهله، ولا تعرف الحق بالرّجال»، وعلى العالم والمفكر والشاعر أن يتقـي الله في قوله وعمله، ويقصد الحق، ويتحرّى الصواب، سواءً وافق الحاكم والجمهـور أو خالفهما، وليتجنّب أهل العلم والرأي والفكر طريقين: طريق التطبيل والتضليـل للحاكم، ولكن الاعتراف بالصحيح والتنبيـه على الخطأ، وأيضاً عليهم مع الجمهور أن يجتنبوا منهج (ما يطلبه المستمعون)، وهم الذين يبحثون عن كل ما يرضي الجمهور، ويثير الرأي العام، فيفعلونه طلباً للشهرة والمنـزلة عند الرّعاع.

﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾.